﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ٣٧ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا فَسَآءَ قَرِينٗا ٣٨ وَمَاذَا عَلَيۡهِمۡ لَوۡ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمۡ عَلِيمًا ٣٩﴾

[النِّساء: 37 - 39]

❁ مُناسَبَةُ الآيَاتِ لِمَا قَبْلَها:

ذِكْرُ الأَخْلاقِ الذَّمِيمَةِ الحامِلَةِ على الفَخْرِ والخُيَلاءِ الواردين في الآيَةِ السَّابِقَةِ

لَمَّا ذكَر اللهُ تعالى الأمرَ بعبادَتِه، والإحسانَ إلى عِبادِه، وذَمَّ المُختالَ الفَخورَ الَّذي يَمْنَعُهُ اختيالُهُ وفَخْرُهُ مِنْ هذا الإحْسانِ[1]؛ شرَعَ في بَيانِ جُمْلَةٍ مِنَ الأَخْلاقِ الرَّديئَةِ والصِّفاتِ الذَّميمَةِ الحامِلَةِ على الاخْتيالِ والفَخْرِ[2]، وأَنَّ مَرَدَّها إلى صِفَتَيْنِ اثْنَتَيْنِ، هُما: البُخْلُ والرِّياءُ، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ﴾، أي: يوقِعونَ البُخْلَ بما حَمَلَهُمْ مِنَ المَتاعِ الفاني على الفَخارِ، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾، فأَتْبَعَهُ ذَمَّ المُسْرفينَ المبَذِّرينَ، فَبَيَّنَ في كُلٍّ هذا أَنَّ الذينَ لا يُحْسِنونَ على الوَجْهِ المَأْمورِ بِهِ - فيمَنْ تقدَّمَ الأَمْرُ بالإحسانِ إلَيْهِمْ - فِرْقَتانِ: فِرْقَةٌ يَمْنَعونَ النَّفَقَةَ أَصْلًا، وهُمُ البُخلاءُ خَوْفًا مِنْ زَوالِها، وفِرْقَةٌ يَمْنعونَ وصْفَها، ويَفْعَلونَها رياءً، فَيُعْدِمونَ بذلِكَ روحَها[3].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَأَعۡتَدۡنَا﴾: أعْتَدَ الشَّيءَ: أعَدَّه، وأَصْلُهُ: أَعدَدْنا، أُبْدِلَتِ الدَّالُ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 7/19، وابْنُ كَثِيرٍ، تَفْسِيرُ القرآن العظيم: 2/301، والسَّعْدي، تَيْسِيرُ الكَرِيمِ الرَّحْمنِ، ص: 178.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 7/21، وابْنُ عُثَيْمين، تَفْسِيرُ ابْنِ عُثَيْمين: (سورَةُ النِّساءِ)، 1/316.
(3) البِقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرَرِ: 5/278.

تاءً[1]، والعَتادُ والعُدَّةُ: ادِّخارُ الشَّيءِ قَبْلَ الحاجَةِ إلَيْهِ، كالإعْدادِ[2]، وأَصْلُ (عَتَدَ): يَدُلُّ على حُضورٍ وقُرْبٍ[3]، فـ"أعتَدْتُ الشَّيءَ: هيَّأته، وأعددته، وهو من إحضاره"[4]، ومعْنى اللَّفظة في الآية: هَيَّأْنا، وأَحْضَرْنا[5].

2) ﴿رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾، أي: مُراءاةً، مِن راءَى فُلانٌ النَّاسَ يُرائيهِمْ مُراءاةً ورِئاءً[6]، وأَصْلُ (رَأَى): يَدُلُّ عَلَى نَظَرٍ، وإبْصارِ بِعَيْنٍ أَوْ بَصيرَةٍ[7]، ويُحملُ عليه المراءاةُ بالعمل؛ وذلك أن ينفق ماله في ما يَرَى النَّاسُ في الظَّاهر أنَّه يريد اللّه تعالى، فيَحْمَدونه، ويُثنونَ عليه، وهو في الحقيقة غيرُ مريدٍ به اللّه ولا طالبٍ منه الثَّواب[8]، وهو معنى اللَّفظة في الآية.

3) ﴿قَرِينًا﴾: القَرين: صاحبك الَّذي يُقارنُك، ويُلاصِقُك، ويتَّصِلُ بك[9]، وهو مِن: قَرَنْت الشَّيء بالشَّيء؛ إذا وصَلْتَهُ[10]، ويُطلق القَرينُ كذلك على: المُصاحِب، وأصل (القَرْنِ): جمعُ شيءٍ إلى شيءٍ[11]، والمراد هنا: الشَّيطانُ المَقْرون بالإنسانِ لا يُفارقُه[12].

❁ المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

الَّذينَ يَمْنعونَ ما أَوْجَبَ اللّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ الإنفاقِ مِمَّا أَعْطاهُمْ مِن رِزْقِهِ، ويَأْمرونَ غَيْرَهُمْ بالإمْساكِ أَيضًا، ويَجْحَدون ما آتاهُمُ اللّهُ مِنْ فَضْلِهِ مِنَ الرِّزْقِ والعِلْمِ وغَيْرِهِ، ولا يُبَيِّنونَ لِلنَّاسِ الحَقَّ، بَلْ يَكْتُمونَه، ويُظْهِرون الباطِلَ، وهذِهِ الخِصالُ من خِصالِ الكُفْرِ، وقَدْ هَيَّأْنا لِلْجاحِدينَ عَذابًا مُخْزِيًا، وهَيَّأنا العذابَ المُخْزِيَ - أَيْضًا- لِلَّذينَ يَبْذُلون أموالهم من أجل أَنْ يَراهُمُ النَّاسُ، ويَمْدَحوهُم، وهم لا يُصَدِّقونَ باللّه، ولا بيوم القيامةِ، وهذه الأعمال السَّيِّئَةُ مِمَّا يدعو إلَيْها الشَّيْطانُ، ومَنْ يَكُنِ الشَّيْطانُ له صاحبًا مُلازمًا؛ فساءَ صاحبًا،

(1) ابن سيده، المحكم: (العين والدال والتاء).
(2) الراغب، المفردات: (عَتَدَ)، المناوي، التوقيف على مهمّات التّعاريف، 236.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عَتَدَ).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (عتد).
(5) الرّاغِبُ، المُفْردات: (عَتَدَ)، والسَّمِيْن الحَلَبيُّ، عُمْدَةُ الحُفّاظ: (عتد).
(6) الجَوْهَريُّ، الصّحاح: (رَأَى).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رَأَى).
(8) الرّاغِبُ، المُفْرداتُ: (رَأَى)، والسَّمِيْن الحَلَبيُّ، عُمْدَةُ الحُفّاظِ: (رأي)، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (رأى).
(9) الأزهري، تهذيب اللغة: (قرن).
(10) ابْنُ مَنْظورٍ، لِسانُ العَرَب: (قَرَنَ).
(11) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قَرَنَ).
(12) ابْنُ الهائِمِ، التِّبْيانُ في تَفْسيرِ غَريبِ القُرْآنِ، ص: 139، والزَّبيديُّ، تاجُ العَروسِ: (قَرَنَ).

وماذا يَضُرُّ هؤلاء؛ لو أَنَّهُم صَدَّقوا باللّه وبيوم القيامة اعْتِقادًا وعملًا، وبذَلوا مِمَّا أَعْطاهُمُ اللّه باحتِسابٍ وإخلاص، واللّهُ عالِمٌ ببَواطِنِ عبادِهِ وظَواهِرِهم، لا يَخْفَى عَلَيْهِ حالُهم، وسَيُجازي كلًّا بِعَمَلِه؟[1]، وترشدُ الآية الكريمة إلى "أنَّ قرناء السُّوء يفسدون الأخلاق؛ لأنَّ عدوى الأخلاق تصل بالمجاورة، كما تصل عدوى الأمراض"[2].

مَـــنْ يَـبْـخَـلُ بِـالإحْـســانِ شُـحًّـا، ومَـنْ يَجودُ بِهِ رِياءً: سيَّانِ، وكِلاهُما مَخْرومٌ مُهانٌ

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الفَصْلِ بالِاسْتِئْنافِ الابتدائيِّ:

الكلامُ اسْتِئْنافٌ ابتدائيٌّ جيءَ بِهِ عَقِبَ الأَمْرِ بالإحْسانِ لِمَنْ جَرَى ذِكْرُهُمْ في الجُمْلَةِ السابقة، كَأَنَّهُ قيلَ: الَّذين يَبْخَلون، ويفعلون، ويَصْنَعون، أَحِقَّاء بكلِّ ملامة[3]، ودَلَّ عَلى هذا الخبر قَوْلُهُ: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾، وقُصِدَ العُدولُ عَنِ العَطْفِ؛ لِتَكونَ مُسْتَقِلَّةً، ولِما فيهِ مِنْ فائِدَةِ العُموم، وفائِدَةِ الإعْلامِ بِأَنَّ هَؤُلاءِ مِنَ الكافِرينَ، فالتَّقْديرُ: الَّذينَ يَبْخَلونَ أَعْتَدْنا لَهُمْ عَذابًا[4].

البَخيلُ بما آتاهُ اللهُ مِنْ مالٍ أَوْ عِلْمٍ حَقيقٌ بِكُلِّ مَلامَةٍ مُسْتَحِقٌّ لِلْعَذابِ والمَهانَةِ

وإرْدافُ التَّحْريضِ على الإحْسان بالتَّحْذير مِنْ ضِدِّهِ، وما يُشْبِهُ ضِدَّهُ مِنْ كُلِّ خلق غَيْرِ صالِحٍ، من قبيل مقابلة الخُلُقِ - الَّذي دَعاهُمُ اللّه إلَيْهِ - بِأَخْلاقِ أَهْلِ الكُفْرِ وحِزْبِ الشَّيْطانِ، كَما دَلَّ عَلَيْهِ ما في خِلالِ هَذِهِ الجُمْلَةِ مِنْ ذِكْرِ الكافِرينَ الَّذينَ لا يُؤْمِنونَ باللّه ولا باليَوْمِ الآخر، فَيكون قَوْلُهُ: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ مُبْتَدَأً حُذِفَ خَبَرُهُ، وتكون الجُمْلَةُ منقطعةً عَمَّا قبلها جيءَ بِها لحكاية صفات من يمنع الإحسان[5].

(1) لَجْنَةٌ مِنْ عُلَماءِ الأَزْهَرِ، المُنْتَخَبُ في تَفْسيرِ القُرآنِ الكَريم، ص: 115، ونُخْبَةٌ مِنْ أَساتِذَةِ التَّفْسيرِ، التَّفْسيرُ المُيَسَّرُ، ص: 85، وجَماعَةٌ مِنْ عُلَماءِ التَّفْسيرِ، المُخْتَصَرُ في تَفْسيرِ القُرآنِ الكَريم، ص: 85.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1682.

(3) الزَّمَخْشري، الكشاف: 2/74، وابن عطية، المُحَرَّرُ الوَجيز: 2/52.

(4) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 5/52.

(5) ابْنُ التَّمْجيدِ الحَنَفيُّ، حاشيَةُ ابْنِ التَّمْجيدِ على البَيْضاويّ: 7/157، وابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 5/52.

توجيه عطف جمل وجوه البخل:

في العطف حسنُ تقسيمٍ لأحوال البخل إحاطةً بوجوهه المذمومة

ذكر تعالى في هذه الآية من أحوال البُخْلِ المذمومة ثلاثًا: أولها: كون الإنسان بخيلًا، وثانيها: كونهم آمرين غيرهم بالبُخْلِ، وهذا هو النِّهاية في حُبِّ البُخْلِ، وثالثها: قوله: ﴿وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾، فيوهمون الفقر مع الغنى، والإعْسار مع اليَسَار، والعَجْز مع الإمكان، ثم إنَّ هذا الكتمان قد يقع على وجه يُوجب الكفر، مثل أن يظهر الشِّكاية عن الله تعالى، ولا يرضى بالقضاء والقدر، وهذا ينتهي إلى حدِّ الكفر، فلذلك قال: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾[1].

في حسن التَّقسيم بالعطف بيانٌ لمنتهى السُّوء في الطَّبع والخصال

يُلمح في حسن التَّقسيم توصيف البخل، وصفة البخيل، وتوسيع دائرة وصفه بالشُّحِّ في نفسه طبعًا متجسِّدًا في الفعال، والأمر بالبخل، ثم كتْم الفضل؛ وذلكم منتهى السُّوء في الطَّبع، والتَّمادي في رديء الخصال.

براعة الالتفات في الآية:

ضمير التَّكلُّم مع الإلتفاتِ لبيانِ شِدَّةِ التَّهديدِ وهَوْلِ الوَعيد

الإلتفاتُ مِنَ الغَيْبَةِ في قوله تعالى: ﴿ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ إلى التَّكَلُّم في: ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾، وهذه النُّونُ الَّتي تَدُلُّ على العظَمَةِ أتَتْ بِغَرَضِ التَّهْويل والتَّعْظيم؛ لِأَنَّ عذابَ العَظيم عَظيمٌ، وغضَبَ الحليم وخيمٌ[2].

وقد نَزَلَت هذهِ الآيةُ في شأن اليهودِ الَّذين كتَموا صِفَةَ رسولِ الله ﷺ وكانوا يأمرون الأَنْصارَ بالبُخْلِ[3]، فكما تَكَبَّروا على عباد الله، ومنَعوا حقوقَه، وتَسَبَّبوا في مَنْعِ غَيْرِهِم مِنَ البُخْلِ وعدمِ الاهْتداء، أهانَهُم بالعذابِ الأليم والخِزْيِ الدَّائم[4]، ولهذا تغَيَّر الأسلوبُ إلى

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/79.
(2) الآلوسيُّ، روحُ المعاني: 3/30.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 08/353، وابْنُ عَطيَّةَ، المُحَرِّرُ الوَجيز: 2/52.
(4) السِّعْدي، تَيْسيرُ الكَريمِ الرَّحْمنِ ص: 177.

صيغَةِ التَّكَلُّم؛ إشعارًا بعِظَم هذا العذاب لذَلِكَ الذَّنْبِ الكبير، ففي قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ بنونِ العَظَمَةِ تَعْلو نَبْرَةُ الوعيد؛ لِتَمْلَأَ الأُفُقَ؛ لأنَّ العتيدَ هو الحاضر المُهَيَّأ[1]، واقترانُه بضمير العظيم المُتعال لا شَكَّ يضاعف مِن عظم هذا العذاب المُهين المُعَدِّ مِن قِبَلِهِ ﷻ.

ونتيجَةً لِعِنادِ الجاحدين وإصرارهم على باطلهم جابَهَهُمُ اللهُ ﷻ بالضَّمير نفسه في آيات كثيرة، مُتَوَعِّدًا إيَّاهم بسوءِ المصير، مِنْها قولُه تعالى في هذه السُّورة أيضًا: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّاۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾﴾ [النساء: 151].

علَّة وضع الظَّاهر موضع المُضْمر:

في الإظهار تقريرٌ برسوخ الكفر فيهم، وأنَّه شأنُهم الَّذي استحقُّوا عليه العذاب

ولِتَقْرِيرِ مَعْنى مقابلة عذابهم بجنس أعمالهم وضَعَ الظَّاهِرَ - أي: لَفْظَ الكافرينَ - مَوْضِعَ المُضْمَرِ في قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾؛ إشْعارًا بأَنَّ مَنْ هَذا شأنُه، فَهوَ كافِرٌ بِنِعْمَةِ اللهِ، ومَن كان كافِرًا بِنِعْمَةِ اللهِ؛ فلَهُ عذابٌ يُهينُهُ، كما أَهانَ النِّعْمَةَ بالبُخْلِ والإخْفاء[2]؛ إذِ الضَّمير كِنايَةٌ عَنِ الذَّاتِ غير مُتَعَرِّض لِلصِّفات، فالبُخْلُ والإخْفاءُ مِنَ الكُفْرِ بِنِعْمَةِ اللهِ، ومَن كانَ كافِرًا بِنِعَمِهِ؛ فَلَهُ عَذابٌ مُهينٌ يُهينُهُ، كما أَهانَ النِّعَمَ بِالبُخْلِ والإخْفاء[3].

ذَمُّ المُرائي بَعْدَ البَخيلِ لِاشْتِراكِهِما في قُبْحِ الفِعْلِ والطَّوِيَّة وسوء المُنْقَلَب

عَطَفَ على جملة: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾، ومتعاطفاتها على جملة: ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾، ووَجْهُ ذَلِكَ: أَنَّ الأَوَّلين قد فَرَّطوا بِالبُخْلِ وبِأَمْرِ النَّاس به، وبِكَتْم ما آتاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ، وهَؤُلاءِ أَفْرَطوا بِبَذْلِ أَمْوالِهِمْ في غَيْرِ مَواضِعِها لِمُجَرَّد الرِّياء والسُّمْعَةِ، وليُقال: ما أَسْخاهُم! وما أَجْوَدَهم! كَما يَفْعَله مَن يُريد أَنْ يَتَسامَعَ النَّاسُ بأنَّه كَريمٌ، ويَتَطاوَلَ على غَيْرِهِ بِذلِكَ، ويَشْمَخَ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 3/636، والقِنَّوْجيُّ، فَتْحُ البَيانِ في مَقاصِدِ القُرآن: 13/169.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/74، وأبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/696، والهرري، تفسير حدائق الروح والريحان: 6/87.
(3) القونَويُّ، حاشيةُ القونَويِّ على البَيْضاويّ: 7/158.

بأَنْفِه عَلَيْهِ، مَعَ ما ضَمَّ إلى هذا الإنْفاقِ الَّذي يعود عَلَيْهِ بِالضَّرَرِ مِن عَدَمِ الإيمان باللهِ واليَوْمِ الآخر[1].

فَقَد أَنْفَقوا إنْفاقًا لا تَحْصُلُ بِهِ فائِدَةُ الإنْفاقِ غالِبًا؛ لِأَنَّ مَنْ يُنْفِقُ مالَهُ رِئاءً لا يَتَوَخَّى بِهِ مَواقِعَ الحاجَةِ، فَقَدْ يُعْطي الغَنيَّ، ويَمْنَعُ الفَقيرَ[2]، فالمُرائي بخيل في الحقيقة؛ إذ هو إنَّما يبذُلُ المالَ لِمَن لا حَقَّ لَهُمْ عنده، ويَبْخَلُ على أَرْبابِ الحُقوقِ كالزَّوجة والولَدِ والخادِمِ والأقربين كالوالِدَيْنِ، ولا يتحَرَّى في إنْفاقِهِ النَّفْعَ العامَّ ولا الخاصَّ، وإنَّما يَتَحَرَّى مَواطِنَ التَّعْظيم والمَدْح، وقَدْ يَكونُ الإنفاقُ ضارًّا، كالمُساعَدَةِ على فِسْقٍ أَوْ فِتْنَةٍ، فَهو تاجرٌ يَشْتَري تَعْظيمَ النَّاس لَهُ، وتَسْخيرَهُمْ لِلْقيامِ بِخِدْمَتِه[3].

فالحاصِلُ: أَنَّ مانعي الإحسانِ مِنْ أَهْلِ الفَخْرِ والخُيَلاءِ فَريقانِ: فَريقٌ يَبْخَلونَ، ويكتُمون فَضْلَ اللهِ عَلَيْهِمْ، وفَريقٌ يَبْذُلُ المالَ؛ لا شُكرًا للّه على نِعَمِه، ولا اعْترافًا لِعبادِهِ بِحَقٍّ، بل يُنْفِقونَها مُرائين النَّاسَ، أي: يَقْصدونَ أَنْ يَرَوْهُم، فيُعَظِّموا قَدْرَهُمْ، ويَحْمَدوا فِعْلَهم، فَهُما في الحكم سواءٌ، فتَشاركا في الذَّمِّ والوَعيدِ؛ لِأَنَّ البُخْلَ والسَّرفَ - الَّذي هو الإنْفاقُ لا على مَنْ يَنْبَغي - مِنْ حَيْثُ إنَّهُما طَرَفا إفْراطٍ وتَفْريطٍ سواءٌ في القُبحِ واسْتِجْلابِ الذَّمِّ[4]، فَإنْفاقُ هَذِهِ الفِئَةِ مِثْلُ إمساكِ تِلْكَ.

سرُّ وصْفِ العَذابِ بِالمُهين:

مُقابَلَتهم بالجزاءِ مِن جِنْسِ أعمالِهم، وتَبْشيع ما هُم عَلَيْهِ مِنَ الكُفْر

جُمْلَةُ: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ اعْتِراضٌ تَذْييليٌّ لِما قبلها[5]، ورُبَّما كانَ اخْتيارُ الإهانَةِ - وهيَ نَقيضُ الإكْرام - ليُقابِلَ ما كانَ مِنْ أَمْرِ هَؤُلاءِ مِنَ الكِبْرِ والخُيَلاءِ اللَّذَيْنِ يَكْرَهُهُما المَوْلَى ﷻ، ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحجّ: 18]. "فإذا كانوا قد استكبروا، وطغوا، واستعلوا، واختالوا في الدُّنيا، وهي متاعٌ قليلٌ، فالذُّلُّ الدَّائم، والهوان المستمرُّ لهم في الآخرة"[6].

(1) القِنَّوْجيُّ، فَتْحُ البَيانِ في مَقاصِدِ القُرآن: 3/119.
(2) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 5/53.
(3) الهرري، تفسير حدائق الروح والريحان: 6/88.
(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/74، وأبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/696، والهرري، تفسير حدائق الروح والريحان: 6/88.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 3/30.
(6) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1681.

فضلًا عن أنَّ في البخل إهانة للنَّفس الَّتي كرَّمها الله بمديد عطاياه، وابتذالًا لها واحتقارًا، بمنعها من طيِّبات ما أحلَّ لها شُحًّا، وحرصًا، وقترًا، فناسب العذابُ تلكم الإهانة.

سِرُّ تَقْديمِ البَخيلِ عَلى المُرائي:

شِـــدَّةُ الأَثَـــرِ الـسَّـيِّـئ على الفَرْدِ والمُجْتَمَعِ أَكْثَرُ ما يَكونُ مِنَ البخيل

قدَّم البُخْلَ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ﴾ على المراءاة في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾؛ لأنَّ البَخيل أَشَدُّ ضَرَرًا بِنَفْسِهِ وبالمُجْتَمَعِ مِنَ المُرائي؛ إذِ البَخيلُ يَحْرِمُ نَفْسَهُ أَجْرَ إنْفاقِ المالِ، ويَحْرِمُ نَفْسَهُ مَحَبَّةَ اللهِ ومَحَبَّةَ النَّاسِ، ويوجِبُ لِنَفْسِهِ العَذابَ المُهينَ، ويَحْرِمُ الفُقَراءَ مِنَ الانْتِفاعِ بِالمالِ، وأَمَّا المُرائي؛ فَإِنَّهُ مَعَ حِرْمانِ نَفْسِهِ أَجْرَ إنْفاقِ المالِ، ومَحَبَّةَ اللهِ ومَحَبَّةَ النّاسِ، ومَعَ إيجابِ العَذابِ المُهينِ لِنَفْسِهِ، لَكِنَّهُ مَعَ رِيائِهِ يَنْتَفِعُ بِمالِهِ الفُقَراءُ والمُحْتاجونَ، ولَعَلَّ اللهَ أَنْ يُصْلِحَ نِيَّتَهُ.

فائدَةُ تَكْرارِ اللَّام والباءِ:

وجْـهُ الـتَّـكـرار انـتِـفـاءُ الإيـمـان بـكُـلِّ واحـدٍ مِـنَ المَـذْكـوراتِ على حِدَةٍ

تَكَرَّرَتْ (لا) وكَذلِكَ (الباءُ) في قوله: ﴿وَلَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾؛ إشْعارًا بأَنَّ الإيمان بكُلٍّ مِنْهُما مُنْتَفٍ على حِدَتِهِ، فلو قُلْتَ: لا أَضْرِبُ زيدًا وعَمْرًا؛ احتمَلَ نَفْيَ الضَّرب عنِ المجْموعِ، ولا يلزم مِنْهُ ضربُ كُلِّ واحد على انْفِرادِهِ، واحْتَمَلَ نَفْيُهُ عَنْ كُلِّ واحدٍ بانْفِرادِهِ؛ فَإذا قُلْتَ: ولا عَمْرًا؛ تعيَّن هذا الثَّاني[1]؛ لِذا تَنَوَّعَت عباراتُ المُفَسِّرينَ في تحديد مَن نزَلَت فيهِ الآيةُ: فَقيلَ: نزلَتْ في اليهود، وقيل: في المنافقين، وقيل: في مُشْرِكي مكَّة[2].

براعة التَّشبيه في الجمع بين صورَتي الرِّياء ومُصاحبة الشَّيطان:

عَبَّرَ السِّياقُ عَنْ صورَةِ المُشابَهَةِ بين الرِّياء وملازمة الشَّيطان

(1) سُلَيمان الجَمَل، الفُتوحاتُ الإلَهيَّةُ، تح: إبراهيم شَمس الدّين: 2/53، والهرري، تفسير حدائق الروح والريحان: 6/88، والقِنَّوْجيُّ، فَتْحُ البَيانِ في مَقاصِدِ القُرآن: 3/119.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 8/356، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 6/320.

في التَّشبيه الضِّمنيّ تَنشيطُ صورَةِ الرِّياءِ في النَّفْسِ والمُبالَغَة في ذمِّ المتَّصِف به

بِطَريقِ التَّشْبيه الضِّمْنيِّ[1] بين المُشَبَّه: ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ والمُشَبَّه به: الجملة المُعْتَرِضَة: ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا فَسَآءَ قَرِينٗا﴾ الَّتي سيقَت؛ لِتَرُدَّ على اسْتِفْساراتٍ مُثارَةٍ في الذِّهْنِ تَتَعَلَّق بالجُمْلَةِ الواقِعَةِ مُشَبَّهًا: لِماذا يَتَكَبَّدونَ عَناء الإنْفاقِ وكُلفتَهُ مع عَدَمِ الأَجْرِ والثَّوابِ، وهُمْ يَعْلَمونَ ذلكَ؟ فهُم أَدْرَى النَّاسِ بِما انطوتْ عَلَيْهِ دخائِلُهم.

فَتَأْتي صورة المُشَبَّه به؛ لِتوَضِّح العلَّة، وتُبَرْهِنَ الحُجَّة: ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا فَسَآءَ قَرِينٗا﴾، فهو المُسَيْطِر عَلَيْهِمْ، وداعيهِمْ إلى هَذِهِ المَعْصيَةِ المُؤَدِّيةِ إلَى النَّارِ[2]، فَشَبَّهَ حالَ مَن يُنْفِقون رِئاءَ النَّاس - وهُمْ يَعْلَمونَ أَنَّهم في تَخَبُّط وخُسْرانٍ - بِحالِ مَن يُقارِنُهُ الشَّيطانُ، ويُمْلي عَلَيْهِ مَنْهَجَ السُّوءِ، ويَجُرُّه إلى الجحيم، فَكُلٌّ مِنْ رُكْنَي التَّشْبيه مَعْنًى قائمٌ بِذاتِه، ولَكِنْ بينَهُما علاقةٌ ضِمْنيَّة قائمَةٌ على أَنَّ المُشَبَّه به حُجَّة ودَليلٌ وتَعْليلٌ لِلْمُشَبَّه[3].

زادَ التَّوكيدُ تصويرَ مُصاحبة الشَّيطان ومُخالَطَتِهِ، ونتائجِ هذه المُلازَمَة

ومِمَّا زاد هذا التَّشْبيهَ قوَّةً وتأكيدًا وتقريرًا مَجيءُ اللَّام في ﴿لَهُۥ﴾ الَّتي أَعْطَتْ معنى (معه)، ومجيء المُشَبَّه به على هيئة الاعتراض وبصيغة الشَّرْطِ وجوابه؛ لِتُصَوِّرَ تِلْكَ المُلازَمَةَ، فإنَّ هَذِهِ الصِّفاتِ الَّتي عَدَّدها الله - تَبارَكَ وتَعالى - لِهَذِهِ الفِئَةِ مِن نتائجِ مُقارَنَةِ الشَّيطان ومُخالَطَتِه ومُلازَمَتِه لِلْمُتَّصِف بذلكَ؛ لأَنَّها شَرٌّ مَحْضٌ؛ إذْ جَمَعَت بين سوءِ الاعْتِقادِ الَّذي صَدَرَ عَنْهُ الإنفاقُ رِئاءً وسائِرِ الأوصافِ المَذْمومَةِ[4].

(1) التَّشْبيهُ الضِمْنيُّ: هوَ ما لَمْ يُصَرَّحْ فيه بِأَرْكانِ التَّشْبيهِ على الطَّريقَةِ المَعْلومَةِ، بَلْ يُفْهَمُ من مَعْنى الكَلامِ وسياقِ الحَديثِ، فَهذا النَّوْعُ مِنَ التَّشْبيهِ لا يَحْتاجُ إلى أَداةِ رَبْطٍ مِثْلَ المؤَكِّدِ، ولَكِنَّ العَلاقَةَ فيه تَقومُ على إعْمالِ الفِكْرِ لِلرَّبْطِ بَيْنَ الرُّكْنَيْنِ، ولِذا فَإمْتاعُ العَقْلِ فيه أَكْثَرُ، لِأَنَّ الشَّيْءَ الذي يَحْصُلُ بَعْدَ جُهْدٍ يَكونُ أَغْلى عَلى النَّفْسِ مِنْ غَيْرِهِ، ويُحْدِثُ مُتْعَةً ودَهْشَةً، ينظر: أَحمد المراغي، عُلومُ البَلاغَةِ، ص: 234.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 3/30.

(3) خَديجة محمَّد بناني، سورَةُ النِّساءِ دِراسَةٌ بَلاغيَّةٌ تَحْليليَّة: 1/408 - 409.

(4) أبو حيان، البَحْرُ المُحيط: 3/683، وابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 5/53.

بلاغة الإيجاز في جملة مصاحبة الشَّيطان:

الشَّيطان قرين سوء للمُذعنِ له بسوء عمله، وقبيح فعله

ذكر أبو زهرة أنَّ في قوله: ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا فَسَآءَ قَرِينٗا﴾ " إيجازًا بالحذف معجزًا، إذ المعنى: وقد دفع هؤلاء - إلى الرِّياء في إنفاقهم وإلى البخل والكتمان - قرناء السُّوء من شياطين الإنس والجنِّ، والقرين: هو الصَّاحب الملازم الَّذي يخلط نفسك بنفسه، ويقرنها بها، حتَّى تصيرا كأنَّهما شيء واحد"[1].

علَّة تقديم أحوال البخل:

مصاحبةُ الشَّيطان أصلُ صفات البُخل ومآلهُ إلى إنكار الإيمان

لكون الاتِّصاف بالبُخْل والأمر به، وكتمان فضل اللّٰه تعالى، والإنفاق رئاءً، شرًّا محْضًا؛ إذ جمعتْ بين سوء الاعتقاد الصَّادر عنه الإنفاق رئاء، وسائر تلك الأوصاف المذمومة؛ قدَّم تلك الأوصاف، وذكر ما صدرتْ عنه، وهو انتفاء الإيمان باللّٰه واليوم الآخر، ثُمَّ ذكر أنَّ ذلك من نتائج مقارنة الشَّيطان، ومخالطته، وملازمته[2].

بديع السَّجع في فواصل الآي:

السَّجعُ في: ﴿مُّهِينٗا﴾، ﴿قَرِينٗا﴾، وهو سَجْعٌ مُتَوازٍ[3] طَويلٌ بِحروفٍ مُتَماثِلَةٍ، فَهاتانِ الكَلِمتانِ ورَدَتا في فاصِلَتَي جُمْلَتَي الاعتراض التَّذْييليِّ في الآيتين:

السَّجعُ في الفَواصِلِ لإثارَةِ السَّامِعينَ وتَنْبيههِمْ إلى تلازمِ جَزاءِ الكافرين بملازَمَتِهم لِلشَّيطانِ القرينِ

فخُتِمَتِ الأولى بـ ﴿مُّهِينٗا﴾، والمُهينُ: هو العَذابُ الجامعُ بينَ الألَمِ والذِّلَّة؛ جزاءً وفاقًا على ما اقْتَرَفوا، وسَمَّاهم اللّٰه كفَّارًا؛ لِلْإيذانِ بأَنَّ هذه أخلاقٌ وأعمالٌ لا تَصْدُرُ إلَّا مِنَ الكَفور، لا مِنَ المُؤْمِنِ الشَّكورِ[4].

---

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1682.

(2) أبو حيّان، تفسير البحر المحيط: 3/258.

(3) السَّجْع المُتَوازي: هوَ السَّجْع الذي تَكونُ فيهِ آخِرُ كَلِمَةٍ في الفِقْرَتينِ مُتَوافِقَتَيْنِ في الوَزْنِ العَروضيِّ والقافيةِ، كَقَوْلِهِ تعالى: ﴿فِيهَا سُرُرٞ مَّرۡفُوعَةٞ ١٣﴾ [الغاشية: 13]، وهوَ مِنَ المُحَسِّناتِ اللَّفْظيَّةِ. عَبْدُ العزيزِ عَتيق، عِلْمُ البَديعِ، ص: 219.

(4) الهرري، تفسير حدائق الروح والريحان: 6/87.

أمَّا قَوْلُهُ تعالى: ﴿فَسَآءَ قَرِينًا﴾؛ فَلِأَنَّهُ يَدْعوه إلى المَعْصيَةِ المؤدِّيَةِ إلى النَّارِ وإلى العَذابِ المُهينِ، فاخْتيارُ القَرينِ دونَ الصَّاحِبِ أَوِ الخَليلِ يَدُلُّ على شِدَّةِ التَّلازُمِ والاقْتِرابِ الَّذي لا يَتَخَلَّلُه انْفِصالٌ، وهوَ تَأْكيدٌ على إيفاءِ السَّجْعِ بِتِلْكَ المعاني المُرادةِ، كما أَنَّ هذا التَّماثُلَ يُعْطي سِرًّا لِهاتَيْنِ الكَلِمَتَيْنِ في بِنائِها، وفْقَ نَغَمٍ يَهْطُلُ على مَسامِعِ القارِئِ؛ ليُثيرَ القارِئَ والمُسْتَمِعَ؛ ويُساعِدَهُ على تَرْسيخِه وتوضيحه بِسُهولَةٍ ويُسْرٍ.

سرُّ العَطْفِ على ما سَبَقَ بالِاسْتِفْهام:

في الاستفهام إنْكارٌ لتخلُّفهم عَنِ الإيمانِ والعَمَلِ الصَّالِحِ، وتَوْبيخُهُم على ذلك

الاسْتِفْهامُ الوارد في قوله: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾ إنْكاريٌّ تَوْبيخيٌّ[1]، وتَقْديرُ الكَلام: لَوْ آمَنوا ما الَّذي كانَ يُتْعِبُهُمْ، ويُثْقِلُهُمْ، أَيْ: لَكانَ خَفيفًا عَلَيْهِمْ ونافِعًا لَهُمْ، فخرج إلى معنى الاسْتِنْكار والتَّوبيخ والتَّعجُّب[2] من أُناسٍ كان بمقدورهم أَنْ يَكْسِبوا رضا الله وعفوَه بإنفاقِ أموالِهم في سَبيلِه بَعْدَ إيمانهم بالله واليوم الآخِرِ، ولكنَّهمُ اسْتَحَبُّوا العمَى على الهدى، فَأَيُّ تَبِعَةٍ ووبالٍ عَلَيْهِمْ في الإيمانِ والإنْفاقِ في سبيل الله، وإلَّا فكُلُّ مَنْفَعَةٍ ومَفْلَحَةٍ في ذلك، وهذا كما يُقال لِلْمُنْتقم: ما ضَرَّك؛ لو عَفَوْتَ، ولِلْعاقِّ: ما كان يَرْزؤُك؛ لو كُنْتَ بارًّا، وقَدْ عَلِمَ أَنَّه لا مَضَرَّة ولا مَرْزَأَةَ في العفو والبِرِّ، ولكنَّه ذمٌّ وتوبيخ وتجهيل بِمكانِ المَنْفَعَة[3].

والمَلامُ هنا مُتَوَجِّهٌ إلى الْفَريقَيْنِ: الَّذينَ يَبْخَلونَ، والَّذينَ يُنْفِقونَ رِئاءً؛ لِقَوْلِه: ﴿لَوْ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ﴾ عَلَى عَكْسِ تَرْتيبِ الكَلامِ السَّابِقِ[4].

(1) مُجيرُ الدّينِ العُلَيْميُّ، فَتْحُ الرَّحْمنِ في تَفسيرِ القُرْآنِ، تح: نورُ الدّين طالب: 2/127، والقونَويُّ، حاشيةُ القونَويِّ على البَيْضاويّ: 7/161.

(2) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 5/53.

(3) الزّمَخْشري، الكشاف: 1/511 وابن عطية، المُحَرَّرُ الوَجيزُ: 2/53، وابْنُ التَّمْجيدِ الحَنَفيُّ، حاشيَةُ ابْنِ التَّمْجيدِ على البَيْضاويِّ: 7/161.

(4) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 5/54.

"أصل استعمال (ماذا عليك): أن يوقع في أمر يجب على المخاطب أن يفعله لما فيه نفعه ومصلحته، فيجعله المتكلِّم مظنَّة للوبال، والتَّبعة؛ إرخاءً للعنان موبِّخًا له على التَّكاسل، كما تقول للمنتقم: ما ضرَّك لو عفوت؟"[1]، وهذا أسلوبٌ بديعٌ استعملَتْهُ العربُ كثيرًا في كلامها، ومِن ذلك قَوْلُ مَنْ قال:

ما كانَ ضَرَّكَ لَوْ مَنَنْتَ ورُبَّما *** مَنَّ الفَتَى وهوَ المغيظُ المُحْنَقُ[2]

في الاستفهام إرشادٌ لِلانْقيادِ لِلْإيمان والإنفاق وتشجيعُهم لِلْإقْبالِ عَلَيْهِ

قال الرَّاغب: "قوله: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ﴾ استدعاء لطيف إلى تحرِّي الإيمان والإنفاق على ما يجب؛ لأنَّ لفظه استخبار يستدعي جوابًا، ولا يمكن جواب المستخبر عنه المشتبه إلَّا بعد التفكُّر فيه، والتفكُّر فيما ذكره تعالى يؤدِّي إلى أن ليس على متحرِّي ذلك ضير، بل له كلُّ خير"[3]، وفيه توجيههم إلى صَرْفِ الفِكْرِ لِتَحْصيل الجواب، لَعَلَّه يُؤَدِّي بِهِمْ إلى العِلْم بما في ذَلِكَ مِمَّا هو أَجْدَى، وتَنْبيهُهُم على أَنَّ المَدْعوَّ إلى أَمْرٍ لا ضررَ فيه ينبغي أن يُجيب احْتياطًا، فكيف إذا تَدَفَّقَت مِنْهُ المنافع[4]؟

نكْتة تقديم الإيمان هنا، وتأخيرِه في الآية السَّابقة:

تقديمُ الإيمانِ هنا حَضٌّ عَلَيْهِ وعنايةٌ به، وتعليلُ الإنفاق ريــاءً بعدم الإيمانِ فيما سَبَقَ

قَدَّم الإيمان على الإنفاق في قوله: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾، وأخَّره في: ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾؛ لأنَّ القَصْدَ بذِكْرِهِ التَّحريض هاهنا والتَّعليل هناك[5]، فتَقْديم الإيمان باللّه واليوم الآخِر هنا؛ لأهمِّيَّتِهِ في نفسه،

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 4/542.

(2) هَذا البَيْتُ مِنْ قَصيدَةٍ لِقُتَيْلَةَ بِنْتِ الحارِثِ تَرْثي أَخاها النَّضْرَ بَعْدَ أَنْ أَمَرَ النَّبيُّ ﷺ بِقَتْلِهِ بِسَبَبِ مُحارَبَتِهِ للهِ ودينِهِ وأَذِيَّةِ رَسولِهِ ﷺ، ينظر: ابْنُ هِشامٍ المُعافِريُّ، سِيرَةُ ابْنِ هِشامٍ، تح: طه سعد، شَرِكَةُ الطِّباعَةِ الفَنِيَّةِ المُتَّحِدَةِ، القاهِرَةُ، دط، دت: 2/285، وابْنُ عَبْدِ رَبِّهِ الأَنْدَلُسيُّ، العِقْدُ الفَريدُ، دارُ الكُتُبِ العِلْميَّةِ، بَيْروتُ، ط: 1، 1404 ه: 6/128، والآلوسي، روح المعاني: 3/31.

(3) الراغب، تفسير الراغب: 3/1239.

(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/74، وأبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/696.

(5) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/74.

ولِعَدَمِ الاعْتِدادِ بالإنفاق بدونه، وأمَّا تَقْديمُ إنفاقِهم رِئاءَ النَّاسِ على عدم إيمانِهم بهما مع كَوْنِ المؤخَّرِ أقبحَ من المقدَّم؛ فَلِرِعايَةِ المُناسبةِ بين إنفاقِهم ذلك وبينَ ما قَبْلَهُ مِن بُخلهم وأمرِهم النَّاسَ به[1].

وإنَّما قُدِّم الإيمانُ هاهنا، وأُخِّر في الآية المتقدِّمة؛ لأَنَّه ثَمَّة ذكرٌ لِتَعْليل ما قبله مِن وقوع مصارفهم في دُنْياهم في غير مَحَلِّها، وهُنا للتَّحْريض، فيَنْبَغي أَن يُبْدَأَ فيه بِالأَهَمِّ فالأَهَمِّ، ويُمْكِنُ أَنْ يُقالَ: أُخِّر الإيمانُ هناك، وقُدِّم الإنفاقُ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ الإنْفاقَ كان بِمَعْنى: الإسْرافِ الَّذي هوَ عَديلُ البُخْلِ، فأُخِّر الإيمان؛ لِئَلَّا يكونَ فاصلًا بين العَديلَيْنِ[2].

فَكانَتْ فائِدَةُ تَقْديم الإيمانِ: أَنَّهمْ لَوْ آمَنوا؛ لَكانَ إنْفاقُهُمْ لِخالِصِ وجْهِ اللّه لا لِلرِّياءِ؛ والرِّياءُ لِكَوْنِهِ شِرْكًا خَفيًّا لا يُجامِعُ الإيمانَ باللّه واليومِ الآخِرِ؛ فَإنَّ التَّوحيدَ مُضادٌّ لِلتَّشْريكِ، فَلا يَجْتَمِعانِ[3].

قال الرَّاغب: "لَمَّا قصد في الأولى إلى ذمِّهم بالإنفاق رياءً لكونهم غير مؤمنين، قدَّم ذكره، وجعل قوله: ﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ في موضع الحال؛ تنبيهًا أنَّ ذلك منهم لكونهم غير مؤمنين، ولَمَّا حثَّهم في هذه الآية على ما يجب أن يتحرَّوه؛ ابتدأ بذكر الإيمان؛ تنبيهًا أنَّ إنفاقهم غير معتدٍّ به إلَّا بعد الإيمان بهما"[4].

قــدَّم الإنــفــاق في الآيــة الأولى لذمِّهم، وأخَّره هنا تنبيهًا على أنَّ إنفاقهم غير معتدٍّ به إلَّا بعد الإيمان

توجيهُ التَّذْييلِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾:

فهاهُنا خَبَرٌ يَتَضَمَّن وعيدًا وتَنْبيهًا على سوءِ بَواطِنِهِمْ، وأَنَّهُ تَعالى مُطَّلِعٌ على ما أَخْفَوْهُ في أَنْفُسِهِمْ، فيُجازيهم بِهِ، فلا يَنْفَعُهُم كَتْمٌ مَعَ عِلْمِ اللّهِ تَعالى بِهِمْ[5]، فـ"القصد إلى الرِّئاء إنَّما يكون

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/697.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 3/31.
(3) ابْنُ التَّمْجيدِ الحَنَفيُّ، حاشيَةُ ابْنِ التَّمْجيدِ على البَيْضاويّ: 7/162.
(4) الراغب، تفسير الراغب: 3/1240.
(5) ابن عطية، المُحَرَّرُ الوَجيزُ: 2/53، والقِنَّوْجيُّ، فَتْحُ البَيانِ في مَقاصِدِ القُرآن: 3/120.

باطنًا غير ظاهر، فبيَّن تعالى أنَّه عليم ببواطن الأمور كما هو عليم بظواهرها، فإنَّ الإنسان متى اعتقد ذلك؛ صار ذلك كالرَّادع له عن القبائح من أفعال القلوب: مثل داعية النِّفاق والرِّياء والسُّمعة"[1].

علمُ العبد أنَّ الله تعالى عليم بالظَّواهر والبواطن رادعٌ له عن قبائح الأفعال

في جملة الفاصلة إشارَةٌ إلى إثابَتِهِ تَعالى إيَّاهُمْ؛ لَوْ كانوا آمنوا، وأَنْفَقوا، فهوَ عَليمٌ بِأَحْوالِهِمْ المحقَّقَةِ والمَفْروضَةِ، فَيُعاقِبُ على الأولى، ويُثيبُ على الثَّانيَةِ[2]، وفي ذَلِكَ تَعْريضٌ بِالتَّهْديدِ والجَزاءِ عَلَى سوء أَعْمالهم[3].

في جملة الفاصلة تعريضٌ بسوء أعمالهم استحقَّ التَّهديد والجزاء

فَيَنْبَغي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَكْتَفيَ بِعِلْمِ اللّه في إنْفاقِهِ، ولا يُبالي بِعِلْمِ النَّاس، فَهوَ الَّذي لا يَنْسَى عَمَلَ العامِلينَ، ولا يَظْلِمُهم مِن أَجْرِهِم شيئًا، وفي هَذِهِ الآياتِ الكَريمَةِ الهِدايَةُ الكافيَةُ في مُعامَلَةِ النَّاسِ لربِّهم ولِبَعْضِهِم بعضًا[4].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

البُخْل والشُّحّ:

البُخْلُ: هوَ مَنْعُ ما في اليَدِ مِنْ مالٍ، قال تَعالى: ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [محمد: 38]، أمّا الشُّحُّ؛ فهو أن يَأْكُلَ المرءُ مالَ الآخرين بغير حقٍّ[5]، كما أَنَّ في الشُّحِّ شدَّةً في الحرص على الشَّيْءِ وطَلَبِه، وجَشَعِ النَّفس عَلَيْهِ، والبُخْلُ: منعُ إنفاقِهِ بعد حصوله، وحُبُّه،

البُخلُ: ثَمَرةُ الشُّحِّ

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/80.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 3/31.

(3) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/177، وابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 5/55.

(4) الهرري، تفسير حدائق الروح والريحان: 6/90.

(5) وبِهَذا عَرَّفَهُ الصّاحبيُّ الجَليلُ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسعودٍ ﷺ، لمّا سُئِلَ عَنْ تَفْسيرِ قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾، في قَوْلِهِ: وإنَّ الشُّحَّ الذي ذَكَرَهُ الله في القُرآن: أَنْ تَأْكُلَ مال أَخيكَ ظُلْمًا، رَواهُ ابْنُ أَبي شَيْبَةَ والطَّبرانيُّ، والحاكم، وقال الحاكم: صَحيحٌ على شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ، ولم يُخَرِّجاهُ، أَبو بَكْرِ بْنُ أبي شَيْبَةَ، المُصَنَّفُ في الأَحاديثِ والآثارِ، تح: كمال الحوت، رقم: (26611)، والطَّبَرانيُّ، المُعْجَمُ الكَبيرُ، تح: حمدي السَّلفي، رَقْم: (9060)، وأبو عبد اللهِ الحاكِمُ، المُسْتَدْرَكُ على الصَّحيحَيْنِ، تح: مصطفى عطا، رقم: (3815).

وبِمَعنًى قَريبٍ فَسَّرَهُ أَيْضًا عَبْدُ الله بْنُ عُمَرَ ﷺ بِقَوْلِهِ: إنَّما الشُّحُّ أَنْ تَطْمَحَ عَيْنُ الرَّجُلِ إلى ما لَيْسَ لَهُ، أَبو مُحَمَّدٍ البَغَويُّ، مَعالِمُ التَّنْزيل: 8/78، والسُّيوطيُّ، الدُّرُّ المَنْثورُ في التَّفْسيرِ المأْثورِ، دارُ الفِكْرِ، بَيْروت: 8/108.

وإمساكُه، فَهوَ شَحيحٌ قَبْلَ حُصولِه، بَخيلٌ بَعْدَ حُصولِه، فالشُّحُّ يَدْعو إلى البُخْلِ، والشحُّ كامِنٌ في النَّفْسِ، فمَنْ بَخِلَ؛ فقد أطاعَ شحَّه، ومَن لَمْ يَبْخَل؛ فقد عَصَى شُحَّه، ووُقِيَ شرَّه، وذَلِكَ هوَ المُفْلِحُ: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾ [الحشر: 9]، فالبُخْلُ ثَمَرةُ الشُّحِّ[1] ومؤدَّاه؛ ولذلك عبَّر به في الآية، ونقل أبو حيَّان عن الرَّاغب: أنَّ البخل لم يُرد به المالُ حسبُ، بل جميع ما فيه نفع للآخر[2]، وهذا سببٌ – أيضًا- في إيثار البُخْلِ في الآية لعمومه، وشموله المال وغيره، فهو أدعى إلى تقبيح الفعل.

الكِتْمان والإخْفاء:

الكِتْمانُ يَخْتَصُّ بِالمَعاني، والإخْفاءُ أَعَمُّ

الكِتْمانُ: هوَ السُّكوتُ عَنِ المَعْنى، ومِنْهُ قَوْلُهُ تَعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [البقرة: 159]، أي: يَسْكُتونَ عن ذِكْرِهِ، والإخْفاءُ يَكونُ في المَعاني، كَقَوْلِهِ تَعالى: ﴿يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾ [آل عمران: 154]، وفي غَيْرِهِ مِنَ الأُمورِ الحِسِّيَّةِ، كَقَوْلِهِ تَعالى: ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ [الأنعام: 91]، والشَّاهِدُ أنَّكَ تَقولُ: أَخْفَيْتُ الدِّرْهَمَ في الثَّوب، ولا تَقولُ: كَتَمْتُ[3]، فالإخْفاءُ يَكونُ في الأُمورِ الحِسِّيَّة، والكِتْمانُ يَخْتَصُّ بِالمعاني كالأَخْبارِ والأَسْرارِ، ولذلك قُصد إلى التَّعبير به؛ لكونهم لا يبيِّنون للنَّاس ما فضَّل الله به عليهم.

القَرين والصَّاحِب:

في الصُّحْبَةِ مَزيدُ انْتِفاعٍ وحِفْظٍ

الصُّحْبَةُ: تُفيدُ انْتِفاعَ أَحَدِ الصَّاحِبَيْنِ بِالآخَرِ[4]، وأَكْثَرُ ما تُسْتَعْمَلُ مَعَ الآدَميِّينَ، وقد يُطْلَقُ الصَّاحِبُ، ويُرادُ به الحافظُ، يُقالُ: صَحِبَكَ اللهُ، وسِرْ مُصاحَبًا، أَيْ: مَحْفوظًا، وفي القُرْآن: ﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ۝٤٣﴾ [الأنبياء: 43]، أَيْ: يُحْفَظونَ.

(1) ابْنُ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ، الوابِلُ الصَّيِّبُ مِنَ الكَلِمِ الطَّيِّبِ، تح: سيد إبراهيم، ص: 33.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/256، ولم أقف عليه في مؤلفات الرّاغب المطبوعة.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 287.
(4) تَعْرِيفُ الصّاحِبِ والفَرْقُ بَيْنَهُ وبَيْنَ الصَّدِيقِ في تَفْسِيرِ الصَّفْحَةِ الثّالِثَةِ مِنْ هذا الجُزْءِ.

وأمَّا المُقارَنَةُ؛ فَهيَ أَنْ يَقومَ أَحَدُ القَرينَيْنِ معَ الآخر، ويَجْري على طَريقَتِهِ؛ وإنْ لَمْ يَنْفَعْهُ، بَلْ وإنْ ضَرَّهُ، كَما جاءَ في الآيَةِ: ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا﴾، ومِنْ ثَمَّ قيل: إذا قامَ أحدُهما مع الآخر؛ فَهُما قَرينانِ[1]، ولاشتماله على صفة الضُّرِّ أُوثِرَ استعمالُه في الآية؛ لكونها حديثًا عن مضرَّة الشَّيطان، وشرور وساوسه، واستطالة أذى مرافقته.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 283.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع، سورة النساء من الآية 24 إلى الآية 114
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة النساء من الآية 24 إلى الآية 114 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 7 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-59-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 7 : سورة النساء من الآية 24 إلى الآية 114.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-59-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-5066600 بتاريخ 2023/03/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»